رواية السيرة الذاتية في النقد الأدبي الجزائري المعاصر؛
دراسة في بعض المتون النقدية

أ. حميدي بلعباس
كلية الآداب جامعة معسكر

يتراوح فن السيرة الذاتية بين الدّقة والرّقة– على حد زعم **ليتون ستراشي**[1] – فالدقة مستمدة حسب **ليون إيدل** من «كون كاتب السيرة Lithon Straché يسعى إلى أن يبعث الحياة فيما تبقى من مادة جامدة تخلقت وراء عبور إنسان ما إلى هذه الحياة الدنيا، فسعى إلى أن يسترد ما كان بمثابة الروح والجسد والمشاعر، ويصوغها على صورة ذلك الإنسان الغابر.ومصدر الرقة أن عملية السيرة هي والتهذيب والمدنية ». بطبيعتها عملية تتسم بالإنسانية

إن محاولة خوض غمار تجربة فن السيرة الذاتية تنبني أساسا على قواعد النفس البشرية ومتغيراتها، غموضها ومتناقضاتها إلى درجة يسعى فيها الكاتب إلى مجاراة ومواكبة الأحداث بعواطف النفس المثارة وإكراهات الزمن والمكان. بيد أن فنية بين دقة منطق الجمع آثار السيرة الذاتية لا تتأتى إلا عن انضباط وانتظام يقتفى التفاصيل وميعان المشاعر والأحاسيس.

كتابة ما يحدث فعلا أثناء لقد استطاع **أندريه موروا** أن يصف بصدق باستحالة بلوغ معالم واضحة في فن كتابة السيرة السيرة وكأنه يترع إلى الاعتقاد الذاتية إذ يقول: « كنا نبحث سوية مدة خمس ساعات عن ظل يطير أمامنا — هذا الظل هو الحقيقة بشأن إنسان ما.سألنا أنفسنا عما إذا كان بوسع كاتب السيرة أن يمسك بها، ويبدو أنه ليس بوسعه، وكلما ظننا أننا سنضع يدنا على الكتف الشبحي للسراب، انقسم إلى نصفين وهربا في دربين مختلفين وباتجاهين متعاكسين.هربت في أحد الاتجاهين أفعال الإنسان وحياته الخارجية التي تمثل عن حق الوثائق والأدلة...وهربت في الاتجاه الآخر حياته الداخلية التي اختفت حال ما ظننا أننا قد أمسكنا بها ».فهل تتأسس شخصية صاحب السيرة بعيدا عن أوراقه أو يومياته أو رسائله؟ ثمة في الواقع أفكار تظل مختبئة في ثنايا اللاوعي تتدفق باستمرار تحت الخفاء.

في البحث في السيرة الذاتية Philippe Lejeuneلقد اختص **فيليب لوجون** حيث وضع تعريفا علميا للسيرة الذاتية بحيث عرفها بأنها «حكي استيعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة عامة »[4]. ومما لا شك فيه أن الجزائر لم تكن بمعزل عن التحولات التي وفدت من الغرب فأصبغت آثار المشرق والمغرب بألوان مختلفة، فالدارس للأدب الجزائري الحديث يلفي تأثرا واضحا للأدباء الجزائريين فيه النقد العربي بخصوص علاقة الرواية بالسيرة بهذا الفن وبالمنحى الذي سار الذاتية.

يتساءل **عمر بن** وفي مقاربته لرواية "يوميات مدرسة حرة" **لزهور ونيسي قينة** عن النوع الذي ينتمي إليه هذا الإبداع إذ يزعم أنه « الأول من نوعه عندنا .غير أننا إذا استعرضنا بعض المتون النقدية فإننا نلفي أن رواية السيرة الذاتية أو[5]» المذكرات كجنس أدبي لم يكن غائبا عن التراث النثري الجزائري وإن أطل بملامح

مغايرة، فقد كتب المذكرات والسير الذاتية قبل الأديبة زهور ونيسي كل من:**عبد الحميد بن باديس** ، **العنيسري، محمود بوزوزو، وحمزة بوكوشة** وغيرهم[6] أما فيما يخص الجانب الفني فإن الناقد يعتبرها « رواية بمقياس النص ورواية بمقياس نمو الأحداث عبر الظرف الزماني والمكاني والنفسي »[7].

فالإبداع يتخذ من الحياة الشخصية للمؤلفة مرتكزا أساسيا، فأضحت رواية "يوميات مدرسة حرة "من النصوص التي أرادت أن تنحت لغتها الخاصة لتبلور التجربة الفردية للأديبة.

وفي موضع آخر يتساءل **عمر بن قينة** من جديد عن روائية هذا الإبداع إذ نلفيه يتردد في اعتباره رواية حيث يقول « هل هي رواية حقا ؟ »[8].و نلمس من موقف الناقد أنه يفرق ما بين الرواية الفنية ورواية السيرة الذاتية.

" على أن ينبغي تجنب Jean Starobiniskiلقد أشار " **جان ستاغبنسكي**" " الحديث عن أسلوب أو حتى عن شكل مرتبطين بالسيرة الذاتية، إذ لا وجود في هذه الحالة لأسلوب أو لشكل ينبغي الالتزام بهما. فمن الصعب إذن أن نجعل حدودا فاصلة مابين السيرة والرواية والمذكرات واليوميات. **فجورج ماي** Georges May لم يلزم نفسه بتعريف محدد، بل نده يؤكد أنه لا يوجد بين السيرة الذاتية والمذكرات أو بين السيرة الذاتية والرواية خط فاصل بيِّن وأن المسألة مسألة نسب ودرجات[9].

وفي محاولة لالتقاط النصوص التي تنبض بمشاهد من السيرة الذاتية يستهل **أحمد منور**[11] في دراسته لرواية السيرة الذاتية في الأدب الجزائري المعاصر وذلك بتقديم أهم نماذج هذا الجنس الأدبي، الكلاسيكية منها على غرار روايتي " **جين أير** " و"**اميلي بر** ونتي" ويحصي في المقابل نماذج أخرى في الأدب العربي على غرار

والعقاد و**توفيق الحكيم**، في أشهر إبداعاتهم الروائية كـــ روايات **طه حسين** "عودة الروح" و"عصفور من الشرق " و"صارة" و" زينب" و"قنديل أم هاشم".إذ يلحظ **أحمد منور** أن مثل هذه الروايات تخرج في الغالب عن أطر الذاتية الفطرية وتنجذب طوعا تارة وقسرا تارة أخرى نحو تيار الموضوعية، وهي تنصرف أساسا من إطارها الخاص إلى أطر عامة وعلى هذا النحو تخرج عن إطارها السير الذاتي متحولة إلى متاهات التخييلية الروائية على الرغم من أنها تسعى دائما للاحتفاظ بجزئيات الجانب الذاتي.

وهو ما يشكل في الواقع منحى عاما على أن يشكل خصوصية في الكتابة الروائية الجزائرية للسيرة الذاتية طالما أن فلوبير نفسه -كما يورد **أحمد منور** – يعترف في رواية "مدام بوفاري "لسائليه قائلا:أنا مدام بوفاري.

وفي هذا السياق تبدت رواية "ابن الفقير "لمولود فرعون رواية متفردة شذت عن السائد في كتابات السير الذاتية، ذلك أن **مولود فرعون** –حسب **أحمد منور**–قد حاول أن يسلك مسلك **مونتيني** و **روسو** و **دودي وديكتز**، كونها تؤلف –في نظره–نماذج تنأى بفنيتها عن الدراسة السيكولوجية أو حتى عن البناء الشعري وتبتعد في الوقت نفسه عن رواية المغامرات انطلاقا من عمق خيالها.

يحاول **أحمد منور** تقفي آثار السيرة الذاتية في رواية "إبن الفقير لـــ" **مولود فرعون**، إذ نلفيه يعتبرها رواية قد كسرت قواعد التكتم على غرار روايات جزائرية أخرى تنحو نفس المنحى مع قليل من التحوير والإنتقائية ويقول في هذا الشأن: « فنجمة ما هي في الواقع إلا السيرة الذاتية لكاتب ياسين في فترة معينة من حياته مع شيء من التحوير والتغيير وإعادة التركيب، و" طيور في الظهيرة" و"البزاة لـــ"**مرزاق بقطاش** ، ليست إلا سيرة ذاتية للكاتب...كذلك نجد من ملامح الكاتب في رواية ""التطليق" أو الإنكار لـــ" **رشيد بوجدرة**. و"رائحة

الكلب لـــ" **خلاص جيلالي** و"باب الريح" لـــ" **علاوة وهبي** و"الانهيار" لـــ"**إسماعيل غاموقات** و"الشمس تشرق على الجميع" لنفس الكاتب و"أطفال العالم الجديد" لـــ" **آسيا جبار** ونجد **الطاهر وطار** باسمه الصريح وبشخصه »[12]. ويعتبر **أحمد منور** أن هؤلاء الكتاب — الحقيقي في رواية "العشق والموت باستثناء **محمد ديب**- لم يتخذوا من حياتهم المحور الأساسي للرواية لكنهم « يتخذونها متكأ -إن صح التعبير- أو معبرا نحو الانطلاق من الذاتي إلى الروايات عن إطارها الذاتي الموضوعي، أو من الخاص إلى العام ومن هنا تخرج السيري إلى إطار الرواية التخييلية بمعناها العام»[13].

لقد استطاع **مولود فرعون** —في نظر الناقد – أن يرسم بسيرته الذاتية « صورة متكاملة للقرية وسكانها لا في صورة الكاتب نفسه، لاسيما أن حياة الكاتب في حد ذاتها...هي حياة عادية جدا، فهي في غاية البساطة وتشبه إلى حد كبير حياة معظم أطفال الريف الجزائري في الفترة الاستعمارية كلها من حيث الفقر والحرمان والحاجة لأبسط مستلزمات الحياة[14]». لقد استطاع **مولود فرعون** أن يعكس بدقة متناهية تفاصيل حيثيات المكان الذي نشأ فيه لدرجة أن **أحمد منور** كان يرى في هذا العرض بناء فعليا لديكور مسرح أحداث ستروى لاحقا، وقد كان ذلك مهيمنا بصورة فعلية على الرواية لدرجة أن الروائي حاول أن يلغي من خلالها أمكنة أخرى قد أثرت في حياته بشكل كبير، وذلك باعتماد تضييق المكان وحصره وهو ما انعكس أساسا بسلبية على نطاق وحدود المدينة.

إن الحشد اللامتناهي للشخصيات وبعض التفاصيل التافهة لعادات وتقاليد القرية عكس بصدق بروز المنحى الاجتماعي للكاتب فالشخصيات « من الكثرة بحيث يتعذر على قارئ الرواية إحصاؤهم أو تذكرهم جميعا، لأن الكاتب كان حريصا على سرد شبكة العلاقات التي تربط سكان القرية ببعضهم البعض من حيث القرابة أو المصاهرة أو الجيرة الخ...فكان ذلك يجره إلى الاستطراد

كافية بإبراز كل أبعاد الشخصية الوجوه دون عناية والاستعراض للكثير من ، وذلك ما لم يمنعه —حسب **أحمد منور**– من تقديم تصور [15]ومكوناتها النفسية» نوعي وإبداعي حيث يمكن للقارئ أن ينغمس في لذة المبادلة العاطفية لشخصيات على الرغم من تبدو للقارئ كما لو كانت معروفة سلفا بكل حيثياتها وأسرارها تأثراته شكلية لا تتعدى حدود التعليقات أن عواطف الكاتب وتعاطفاته أو القصيرة.

لقد خلص **أحمد منور** في نهاية مقاربته لرواية "ابن الفقير" لـــ" **مولود فرعون** إلى إجراء مقارنة بين رواية السيرة الذاتية ورواية التخييلية، وانتهى إلى أن **مولود فرعون** قد كان واعيا كل الوعي بما تنطوي عليه فنيات كتابة رواية السيرة الذاتية من عيوب، على الرغم من إصراره على محاكاة واقعه بالشكل الذي جاء عليه نوازع البراغماتية والعملية ضمن رؤية إبلا غية في المقام الأول، حيث بدت لا يعني في كل الأحوال انعدام وجود بعض الجمالي وذلك على البعد مهيمنة الصور الفنية والمشاعر الرقيقة والعواطف الجياشة.

إلى دراسة السيرة الذاتية في [1]لقد تعرضت الباحثة الجزائرية **خديجة زعنق**[6] بحثها الموسوم بـــ"السيرة الذاتية في الأدب العربي، " **جبرا إبراهيم جبرا** نموذجا" أبوابها، إذ تبدي من الباب الأول نزوعا أن تلج باب السيرة الذاتية من أوسع واضحا نحو المباشرة في الطرح، في محاولة للبحث في التطور التاريخي ضمنيا، كونها حاولت رصد حيثيات وأدبيات كتابة السيرة سواء في نصوص قديمة أو حديثة أو معاصرة، وفي هذا الباب استطاعت أن تمهد بعرض نمطية تقريبية للكتابة العربية في فن السيرة الذاتية، ثم أتبعت الباب بباب ثان، ولجت من خلاله عتبات المقاربة بصورة مباشرة لنص **جبرا إبراهيم جبرا** "البئر الأولى"، وعلى نفس المنوال قدمت في الباب الثاني قراءة لنص ثاني ألا وهو "شارع الأميرات".

وفي ما يبدو أن **خديجة زعتر** قد استطاعت أن تنتقل بين البابين من منهج يقوم أساسا على فنية البناء في السيرة وذلك ببحث نظمه السردية ولغته وأساليبه، ثم طفقت بأسلوب مغاير تنهج طريقة دراسة النص الثاني في الباب الثالث انطلاقا من تقسيم المتن إلى قسم أول وثان. وهو في الحقيقة ما لم تبن من خلاله هذه الباحثة عن منهجية واضحة ومحددة في التحليل، إذ يمكن للدارس أن يلاحظ عنايتها في الفصل الأول من الباب الثالث بتتبع الأطر المضمونية لرواية "شارع الأميرات" لتنتقل بعدها في الفصل الثاني والثالث إلى متابعة حيثيات البناء الفني متطرقة أساسا إلى إشكالية التجربة الفنية والصراحة والتداخل بين المعطيات، وهي كلها في الواقع إشكاليات تبدو من صميم البحث في نقد رواية السيرة الذاتية.

نستنتج من خلال كل ما سبق أن الدراسات التاريخية في نقد الرواية، قد تغلب عليها جانب التأريخ الذي جعل نقادنا يهيمون في متاهات النقاشات والتأويلات في إطار السبق الروائي وظهور الرواية الفنية الناضجة، ووقفوا عند تخوم النقد التاريخي و لم يدخلوا عالمه الرحب، وبخاصة في باب حديثهم عن رواية السيرة الذاتية التي رأيناها عند **أحمد منور** الذي أعطاها الطابع الإجمالي العام في حديثه عنها في الأدب الجزائري، و لم يفصل الحديث عنها، إلا في النموذج عن "ابن الفقير".

غير أننا نرى بعض الكتاب الجزائريين من تعرض إلى السيرة الذاتية، مثل خديجة زعتر التي دخلت عالم السيرة الذاتية، من بابها الواسع في دراستها التي سبق وأن أشرنا إليها، وهي تعد – على وجه العموم– أول دراسة أكاديمية عرفتها الدراسات الجامعية في الجزائر.

الهوامش:

1- ليون إدل، فن السيرة الأدبية، تر. صدقي حطاب، القاهرة، مطابع سجل العرب ، 1973، ص 09.

2- م ن، ص ن.

3- أندريه موروا، أوجه السيرة، تر. ناجي الحديثي، العراق، دار الشؤون الثقافية العامة، د.ت، ص.131

4- انظر محمد الباردي، عندما تتكلم الذات، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005.

5- عمر بن قينة، دراسات في القصة الجزائرية القصيرة والطويلة، المؤسسة الوطنية 1986، ص176..للكتاب، الجزائر، ط1

6- ينظر عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931-1954)، (د.م.ج) الجزائر، 1983.

7- عمر بن قينة، دراسات في القصة الجزائرية القصيرة والطويلة، ص176.

8- م ن، ص177.

9- م ن، ص 177.

10- Voir Georges May,l'Autobiographie,PUF.Paris.1979.

11- أحمد منور، رواية السيرة الذاتية في الأدب الجزائري الحديث، ابن الفقير نموذجا، مجلة المساءلة، ع 1، 1991 ص 185.

21- أحمد منور، رواية السيرة الذاتية في الأدب الجزائري الحديث، ابن الفقير نموذجا، ص 185.

13- مص ن، ص 186.

14- مص ن، ص 188.

15- مص ن، ص 185.

16- خديجة زعتر، رواية السيرة الذاتية في الأدب العربي، جبرا إبراهيم جبرا نموذجا، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في الأدب العربي جامعة السانية، وهران، 2003-2004.